



إببارشية جنوبي أمريكا للأقباط الأرثوذكس

الرسالة الشهرية لزوجات الآباء الكهنة يناير ٢٠١٧ م

صرت لكل كل شيء

ونحن نحتفل في هذه الأيام المباركة بتجسد السيد المسيح وميلاده نتذكر عبارة قانون الإيمان والقداس القائلة: "تجسد وتأنس" كما نتذكر أيضاً عبارة التسبحة: "أخذ الذي لنا". وبالتأكيد لم يقم آباء الكنيسة بإضافة كلمة "تأنس" لكلمة "تجسد" عن غير قصد على سبيل الإسهاب. بل أنهم فعلوا ذلك بوحى إلهي للتأكيد على أن السيد المسيح لم يأخذ مجرد جسد بل أخذ كل ما للإنسان ما خلا الخطية وحدها. "في كل موضع يصير المخلص هو الكل للكل. فللجائع يصير لهم خبزاً، وللعطشان ماءً، وللموتى القيامة، وللمرضى طبيباً، وللخطاة خلاصاً" (القديس كيرلس الأورشليمي).

وبولس الرسول قال عن نفسه: "فإني إذ كنت حراً من الجميع، استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين. فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود. وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس. وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع أي لست بلا ناموس لله، بل تحت ناموس للمسيح لأربح الذين بلا ناموس. صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء. صرت لكل كل شيء، لأخلص على كل حال قوماً" (١كو ٩: ١٩-٢٢). يظهر هذا المقطع الرائع كيف أدرك بولس الرسول سر المسيح المكتوم منذ الدهور. فهو إذ صار لكل كل شيء تشبه بمسيحه الذي صار للإنسان إنساناً.

أن يصير الخادم للكل كل شيء يعني أنه بينما يتعامل مع الآخرين ويخدمهم فإنه في إخلاء ذات حقيقي يتخلى عن كل آرائه، وميوله، واتجاهاته الشخصية. إنه يخرج خارج إطار خبراته الشخصية ويستبدل الأدوار معهم محاولاً أن يرى الأمور من زاويتهم، شاعراً بما يشعرون متفهماً الخلفيات المختلفة التي تصدر عنها سلوكياتهم. وكما يقول القديس إمبروسيوس: "كلنا يوجد فينا ما هو مشترك مع كل أحد.

هذا التعاطف مع الآخر هو ما احتضنه بولس في تعامله مع كل شخص بعينه". هذا هو في الحقيقة الخادم الأمين المرن الذي تعلم كيف يجد له وللمسيح موضعاً بين كثيرين. فهو يعرف كيف يصير للأطفال طفلاً، وللشباب شاباً، وللشيوخ شيخاً، وللضعفاء كضعيف، وللباكين باكياً، وللفرحين فرحاً، وللمعوزين معوزاً، وللمتألمين متأماً.

والحقيقة أن الخادم لا يستطيع مهما فعل أن يأخذ تلك الموهبة من ذاته. إنها عطية للروح القدس التي يهبها لتلاميذه الساهرين عند قدميه. إنها سر المسيح المتأنس الذي يمنحه فقط لخائفيه الذين منحهم عهده لتعليمهم.

لكن لا يظن أحد أن بولس الرسول كان منافقاً متلوناً، بل كما قال عنه القديس أوغسطينوس: "فعل هذا عن عفوٍ وليس عن كذب. فإنه صار لكل واحد كأنه مثله لكي يعينه. هذه هي الطريقة التي تتغلب بها المراحل العظيمة، فيرغب كل واحد له كما لو كان في نفس البؤس الذي فيه. هكذا صار مثل الغير لا بخداعه بل بوضع نفسه في موضع الغير"؛ والقديس إمبروسيوس: "هل صار بولس كل شيء لكل البشر

في المظهر فحسب متملقاً إياهم؟ لا! كان رجل آلام، وباهتمام شديد اهتم بهم وتعاطف مع جميعهم".

أما الخادم المنقاد بذاته، الذي لم يأت ليخدم بل ليُخدم، فهو يستبدل الأمور جاعلاً شعاره: "فليصر الكل كل شيء لي!!" إنه يبقى جامداً في مكانه مطالباً الآخرين أن يتشكلوا هم بحسب رغباته وأهوائه، وظروفه الشخصية. فهو يطالبهم بأن يحبوا ما يحب، ويكرهوا ما يكره، ويفعلوا ما يفعل؛ وإن لم يتحقق له ما يريد فإنه يغضب على الجميع ويدين كل. وهو إذ يفعل هذا فإنه لا يكتفي بذلك فقط، بل هو يطالب الله ذاته بأن يخضع لهذا القانون عينه!!

طوبى إذاً لزوجته الكاهن التي تصير أيقونة حياة لسر المسيح المتأنس بأن تصير لكل كل شيء. ألم تكن السيدة العذراء التي عاشت سر تجسد المسيح وتأنسه هي ذاتها كل شيء للمسيح، وليوسف، ولأليصابات، ولأهل عرس قانا الجليل، وليوحنا الحبيب، ولرسل، ولتياس الرسول، وللمريمات؟!

كل عام وأنتم صائرات كل شيء لكل بشفاعتها!!